

هل أدت الجامعة رسالتها؟

للدكتور زكي مبارك

(تمة ما نشر في العدد الماضي)

الجامعة المصرية ، ولكنها رسالة مزدوجة ، لأنها أرادت أن تضع حجراً جديداً في بناء كلية الطب ، حيث فرضت أن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يأخذ زاده العلمي من كلية العلوم ، وهو تقليد جميل ، لا يمتري في جماله غير الجهلاء

ثم رأت الجامعة أيضاً أن لا يدخل طالب كلية الحقوق إلا بعد أن يعضى سنتين في كلية الآداب ، ليتزود بالحقائق الأدبية والفلسفية ، عساه يصير فيما بعد من أئمة التشريع والطلبة الذين انتفعوا بذلك النظام هم المرجع في هذه الأيام لدراسة القوانين
أيها السادة :

كانت المشكلة في العهد الجديد أن تعرف الجامعة كيف تنفع الحكومة بقيمتها الذاتية ، وكان الرأي أن تسير الجامعة على النظام الفرنسي ، وهو يقضى بقصر التعليم الجامعي على أربع كليات : الآداب والعلوم والطب والحقوق ، ثم رأت أن تسير على النظام الإنجليزي فتفرع رايها على جميع المعاهد العالية ، ولي على هذا النظام اعتراضات لا يتسع لها المجال

والهم هو النص على أن الجامعة استطاعت أن تسيطر على جميع الفروع بالتعليم العالي ، وأن تملن استقلالها عن وزارة المعارف ، وهذا مضمّن ليس بالقليل ، وهل من القليل أن تكون الجامعة دولة في جبين الدولة ، وأن يكون التعرض لأحد مدرسيها مما يفتح باب الجدال في مجلسي البرلمان ؟

عندنا جامعة بالقفل ، لا بالقول ، وعندنا جامعيون لا يقيمون وظائف الحكومة إلا متفضلين ، لأن الجامعة أعدتهم للجهاد في الحياة بلا سند من هذا الوزير أو ذاك

رسالة الجامعة هي نصر الحياة على الموت ، وقد نصرنا الحياة على الموت ، فليجرب خصومنا حظوظهم في محاربتنا إن استطاعوا وأنا أخشى أن يستطيخوا ، فقد سمعت أنهم يملكون بلايين ودشالين من القبور التي ترجع إلى عهد آدم وحواء !

أفي نيّف وثلاثين عاماً تصنع الجامعة هذا الصنيع ، فتُسمّر الذاتية الأدبية والعلمية ، وتقول للرجل الفكر كن وجوداً ذاتياً فيكون ؟

كان ذلك لأنها أسست على التقوى ، والتقوى هي الخوف ،

إن الجامعة التي أنشئت لمقاومة الاحتلال ، هي الدار التي ارتفع فيها صوت الاستقلال
فما السرّ في أن يكون للجامعة هذا السلطان ؟ ما السرّ في أن تصنع في الأيام القصار ما عجز عنه غيرها في الأعوام الطوال ؟

لا تسألوها ولا تسألوني ، فقد توأمتنا على الكتمان ، وسرّ المجد لا يذاع

ليست الجامعة حجرات ، ولا غرفات ، ولا مدرجات ، ولا وظائف ، وإما هي : روح وفكر وعقل وبيان
ثم أواجه العهد الثاني فأقول :

في سيف سنة ١٩٢٥ أخذت الحكومة في التأهب لتنفيذ مشروع ترددت في تنفيذه سنتين « فإن الاتفاق بينها وبين الجامعة عُقد في سنة ١٩٢٣ ، يوم كان الرجل العظيم زكي باشا أبو السموود وزيراً للمعارف » وكان مصدر التردد أن الحكومة لا تعرف بالتحديد كيف يكون نظام الجامعة في عهدها الجديد ثم بدا للجامعة الجديدة أن تراعى تقاليد الجامعة القديمة فتستشير أقطاب الجامعات الأوربية في الأوضاع التي تحمي تنفيذ المشروع من الإخفاق

وما هي إلا أيام حتى استطاعت أن تستقدم كبار الأساتذة من الجامعات الفرنسية والبلجيكية والإنجليزية

ولأول مرة في تاريخ مصر الحديث أنشئت كلية جديدة اسمها كلية العلوم ، وهي الكلية التي عجزت الجامعة عن إنشائها في عهدها الأول ، بحجة أن كلية العلوم لا تُرجل ، كما صرح السيوفيليه ، وكان أحد خطباء حفلة الافتتاح في ديسمبر سنة ١٩٠٨ إذ قال :

Une Faculté des Sciences ne s'improvise pas.

كان إنشاء كلية العلوم أداء لرسالة جديدة من رسالات

وكانت الجامعة تخاف أن ينهزم السلطان الأدبي والعلمي في هذه البلاد ، وقد انتصرت ، لأن الخوف هو باب الأمان
أيها السادة :

إن تاريخ الجامعة في عهدها الجديد لا يتجاوز سبعة عشر عاماً ، وتلك مدة لا تكفي لإيجاد محصول تباهى به الجامعات التي طال عهدها بالوجود ، فكيف أصل إلى إقناعكم بأنها أدت رسالات لم تؤد من قبل ؟

أما مصاعب ترجع إلى أن الجامعة في عهدها الجديد قد انتظمت معاهد لها تواريخ ، فكلية الطب حلت محل مدرسة الطب ، ومدرسة الطب المصرية « مدرسة قصر العيني » قامت بخدمات كبار في أزمان طوال ، وقد كُتِبَ عنها في اللغات الأوروبية عشرات المؤلفات والبحوث ، ولقد كان مجدها يهزنى هزة الازدهاء حين أرى ما كُتِبَ عنها في المكتبة الطبية بحى السوربون

ومع ذلك فمن السهل أن أقرر أن مدرسة الطب قد ازدهرت ازدهاراً ملحوظاً حين انضمت إلى الجامعة في عهدها الجديد ، فقد ضخمت ميزانيتها ، واتسعت مبانيها ، ومضت إلى آفاق لم يفكر فيها أبناؤها الأولون

استطاعت كلية الطب بفضل أساندها وخريجياتها أن تقوم بعقد مؤتمرات سنوية في مختلف البلاد العربية ، وهى مؤتمرات تعرف فيها أطباء العرب بعضهم إلى بعض ، وتلاقت فيها قلوب لم يتيسر لها التلاقي قبل تلك المؤتمرات ، وإن وُجِدَ حِلْفٌ عربى بعد زمن قصير أو طويل فسيذكر التاريخ أن لأعضاء الجمعية الطبية المصرية بدءاً مباركة في إيجاد الحلف المنشود ، ولعله قريب

فإن كنتم في ريب من إحياء مدرسة الطب بعد أن صارت كلية فتذكروا اسم الدكتور على باشا إبراهيم ، فأعظم منصب كان يصل إليه مثل هذا الرجل العظيم هو أن يكون وزيراً ، وقد كان ، ولكنه ما كان يعمل إلى منصب مدير الجامعة المصرية لو ظلت تلك المدرسة بمنأى عن الحرم الجامعى ، وخلق الوزراء سهلاً جداً في المهود البرلمانية ، أما خلق شخصية تتولى إدارة الجامعة فهو رهين بالأهلية الجامعية

وهنا أعقب على معالى الدكتور على باشا إبراهيم بمناسبة

الجواب الذى قدمه إلى مجلة الإثنين وقد سأله عما يختار من ألقابه الكثيرة فاختار لقب « الجراح »

وإنما أوجه إليه هذا العتب ، لأن براعته في الجراحة لم تكن المؤهل الوحيد لصلاحيته لإدارة الجامعة المصرية ، وإنما أهله لهذا المنصب مزايا كثيرة ، منها أنه من كبار مفكرينا ومنها أنه من أحد الرجال القلال الذين يعنون بتربية الأذواق ، ومنها أنه منوّع الثقافة بحيث يستطيع أن يشترك في الأحاديث التي تتصل بجميع الكليات

ثم أذكر أن معالى الدكتور عبد الواحد الوكيل لم يترك دروسه في كلية الطب بعد أن صار وزير الصحة العمومية ، فهل يقع هذا إلا من رجل صقلته الروح الجامعية ؟

قولوا الحق واعترفوا بأن لكلية الطب مذاقاً غير مذاق مدرسة الطب ، مع الاعتراف بما لمدرسة الطب القديمة من أجداد سيحفظها التاريخ

ثم يجيء القول عن مدرسة الهندسة بعد أن صارت كلية ، ومعلوماتى عن هذه الكلية قليلة ، لأنى مهندس معانى ، لا مهندس مبانى

ومع هذا يصح الحكم بأن الجامعة خلقت كلية الهندسة خلقاً جديداً ، فقد وجهتها إلى هراى جديدة ، حين أوجت إلى أبنائها أن يشتركوا اشتراكاً فعلياً في أكثر الأعمال الهندسية ، وكانت من قبل وقفاً على خلائق ليس لها في هذه الديار أنساب ولنفرض أن كلية الهندسة لم تأت بجديد ، فهل تنسون أنها تبالغ في اختيار الطلاب ؟

ألم تسمعوا أن صدق باشا عجز عن إلحاق أحد أبنائه بكلية الهندسة مع أنه استطاع حل الزلزال ؟

وسلطان الجامعة من هذه الناحية ليس اعتسافاً ، وإنما هو تعبير عن قوة الذاتية المصرية

ثم يجيء القول عن كلية الحقوق ، وهى وريثة مدرسة الحقوق ، ولطيلة مدرسة الحقوق القديمة تاريخ صوره شاعرنا حافظ إبراهيم حين قال :

وكيف يعزى للطلاب حقٌ وهم في مصر طلاب الحقوق
وما كادت مدرسة الحقوق تصبح كلية حتى اهتدت إلى أن لها
غرضين أساسيين هما مجلة الرأى فيما تنسأى إليه من كرائم الأغراض

وقد كان من آثار جهودهم في تنمية الثروة الزراعية أن أعلن أصحاب البساتين شكواهم من رخص الفواكه قبل أن تغلها أعمار الحرب

أما كلية التجارة فكانها معروف ، فقد استطاع أبناؤها أن يكونوا السناد المتين لبنك مصر وشركاته المتنوعات ، وأنهم تعرفون أن بنك مصر توجيه جديد لأكثر أمم الشرق ، فهو أول بنك يزه تميزاته وحساباته عن اللغات الأجنبية ، واعتمد

كل الاعتماد على اللغة العربية

أيها السادة

بقى القول في كلية الآداب ، وكلية الآداب لها الصدارة في جميع الجامعات ، ومن أجل هذا كانت كليتنا الغالية على

يمين من يدخل حرم الجامعة المصرية

ومع ذلك فكلية الآداب هي صاحبة الحظ الأوفر من الشقاء في جميع الجامعات ، لأنها تتأجج أموراً دقيقة لا تظن إليها الجماهير إلا بعد زمن أو أزمان

ألوان المعاش تحتاج في كل يوم إلى المهندس والتاجر والزارع والمحامي والطبيب ، وهي تستغنى بكل سهولة عن الأديب والمؤرخ والفيلسوف ، وهل يحتاج الناس إلى الأدب كما يحتاجون إلى الرغبة

ورقة مرقومة من كلية الطب تمنح حاملها العيش الرغيد ، وكذلك يقال في الأوراق التي تمنحها سائر الكليات

أما نحن فلا يمرقنا الجمهور ولا تعرفنا الدولة إلا بعد أن نبالغ في إقذاء العيون تحت أضواء المصاييح

ولهذا أرجوكم السماح بمرض بعض الخدمات التي أدتها كلية الآداب إلى الوطن الحافظ للجميل !!

كلية الآداب هي الكلية المظلومة ، وسيلحقها الظلم إلى أن تستطيع إقناع الأمة بأن الأدب مقدم على الرغبة ، فهل تستطيع أقلامنا أن تروض الأمة على الإيمان بأن زاد العقول مقدم على زاد البطون ؟

إن جهادنا سيطول وبطول ، إلى أن نذكر مصر أنها الأمة التي سبقت جميع الأمم إلى وضع تمثال للكاتب الفكري قبل ألوف السنين

سنرى كيف تستطيع كلية الآداب أن تقنع الأمة بأنها

الغرض الأول هو البرهنة على أن اللغة العربية قادرة على الإفصاح عن دقائق القوانين ، وأنا لا أتميز لوطى إن قررت أننا سبقنا جميع البلاد العربية إلى التأليف الجيد في مختلف فنون التشريع

أما الغرض الثاني فهو معاونة الشعوب العربية على استرداد الثقة بالفقه الإسلامي ، وهو أخصب من الفقه الروماني بمراحل طوال ...

وفي هذا المقام تلوح فرصة للكلام عن الدكتور السنهوري فقد نهض بمبء في تلقيح القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، وهو جامعي قديم ، لأنه كان من طلبة قسم الحقوق بالجامعة المصرية في عهدها الأول ، ولأنه كان عميد كلية الحقوق بالجامعة المصرية في عهدها الجديد . ولو أن الدكتور السنهوري أغنى نفسه من السياسة وتقلبات السياسة لأدى لوطه خدمات أعظم وأنفع ، فقد دعى لوضع القانون المدني المراقى ، ولكن منصب وكيل وزارة المعارف أغراه بالاعتذار ، مع أنى ألححت عليه في أن يترك ذلك المنصب الخداع ليؤدي لسمعة مصر العلمية خدمة مأثورة في العراق الشقيق

ويضاف إلى هذين الغرضين غرض ثالث : هو الرغبة الشريفة في معاونة الأمم العربية على التعمق في الدراسات القانونية ، ولن ننسى فضل العراق في إظهار ثقته النبيلة بكلية الحقوق المصرية ، فقد رأى أن يستأنس بها في تقوية كلية الحقوق العراقية . وهذه الالتفاتة من جانب العراق تقوى ثقتنا بالكلية المصرية ، وتدعونا إلى تأييدها بجميع ما نملك من فنون التأييد هل أحتاج إلى القول بأن كلية الحقوق غير مدرسة الحقوق ؟ لقد نشأت فيها أقسام جديدة بعد الليسانس ، نشأت فيها دراسات لم تكن معروفة قبل عهد الأنظمة الجامعية ، وهذا استطاعت أن تقدم ألواناً جديدة من فقه التشريع ، وما أحب أن أزيد

وهناك كلية مجهولة هي كلية الزراعة ، فهل تظنونها صورة من مدرسة الزراعة ؟

إيمحوا تعرفوا أن كلية الزراعة أمدت أبنائها بأفكار وآراء لم تعرفها مدرسة الزراعة ، فقد حاولوا وسيحاولون الاستيلاء على الأراضي التي لم تجد من يحسن استغلالها على الوجه الصحيح ،

وأنا لم أشارك في رثاء هذه الكاتبة ، لأنى لا أزال أراها
رأى القلب ، ولأنى لا أحب أن أصدق أن الفناء يجوز على شبابها
الجميل ، وكان من بساط الوجود

وقبل أن تموتى رأيت تأثير كلية الآداب حين زرت
الوصل في ربيع سنة ١٩٣٨ ، فقد رأيت المدينة كلها مشغولة
بكتاب أخرجته فتاة من طالبات كلية الحقوق

كلية الآداب هي أول معهد مصرى أباح اختلاط الجنسين
في المعاهد العالية ، وهو مبدأ يرضى عنه قوم وينضب عليه أقوام
ولكنه مبدأ ، وللبداية قيمة ، ولو أقيمت أساسها على ضلال
وكلية الآداب هي أول معهد مصرى فكر في إمداد الصحافة
بقوى جديدة مزودة بأهم أقوات الأذواق والعقول ، وسيكون
لأبناء معهد الصحافة تأثير جميل في صحافة الجيل الجديد
أيها السادة

ستسمعون في هذه الليلة كلاماً في تجريح الجامعة ، من
أبناء الجامعة أنفسهم ، فلا تظنوا ذلك التجريح من صور العقوق
وإنما يجب أن تعدوه من صور الوفاء ، لأنه من أقوى البراهين على
أن الجامعة أدت رسالتها خير أداء

أهم رسالة من رسالات الجامعة هي خلق القلق الروحي
والعقلي ، فإن غلبني مناظرى في هذا الساء فسيكون فوزهم
تأيداً لحجتي . وهل تنسون أن الأشبال لا يصاولون آباءهم إلا بعد
أن يصبحوا من الأسود ؟

لا أعرف ما الذي سيقول مناظرى الفضلاء ، ولكنى أخشى
أن يفوتهم مقتل هو أضعف مقاتل الجامعة المصرية ، وهو عجزها
الفاضح عن أن تجعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع المواد
بجميع الكليات

لقد قضيت عشر سنين في الدعوة إلى هذا المبدأ القومى ،
فما استمع مستمع ولا استجاب مستجيب ، فليلتفت مناظرى
إلى هذا المقتل ، وليقولوا لرجال الجامعة إن السبات قد يفضى إلى
الموت ثم إلى الفناء

لا يجوز في أية جامعة أوروبية أو أمريكية أن يؤدى امتحان
بغير اللغة القومية ، إلا أن يكون امتحاناً في إحدى اللغات
الأجنبية ، أما الجامعة المصرية فتسمح بأن يؤدى الامتحان بغير
اللغة العربية في الباحث الإسلامية ، وهذا هو الكفر بعد الإيمان

أنفع من كلية الطب عروسى كيف يمكن إقناع الأمة بأن
احتياجها إلى الأدب أشد من احتياجها إلى الطبيب ... يوم ذاك
يصح القول بأن الجامعة أدت رسالتها خير أداء

وإلى أن يجيء ذلك اليوم أذكر بإيجاز بعض ما صنعت كلية
الآداب ، فإذا صنعت كلية الآداب ؟
وهل تستطيعون أن تتناسوا جهود الأساتذة والمربيين
بكلية الآداب ؟

التأليف عندنا ، فما رأى هذا العصر أقوى من كتاب الأدب
الجاهل وكتاب النثر الفنى ، من حيث البلبلة الفكرية في الحياة
الأدبية . ونحن الذين غيرنا اتجاه الأدب في مدارس الدولة من
حال إلى أحوال

والترجمة عندنا ، فأبناء كلية الآداب هم الذين ترجموا دائرة
المعارف الإسلامية مع تحقيقات يعترف بقيمتها المؤلفون الأصلاء
والشعر عندنا ، فليقدم لصاوتى في الشعر من يطبق ، ولن يطبق
والمدج القوى عندنا ، ففي كليتنا الغالية أقيمت معاهد
للدراسات الأثرية من فرعونية وإسلامية ، بحيث يستطيع الفنى
المصرى أن يعرف فضائل الأجداد والآباء

ونحن الذين فكرنا في أن يكون مدرسو اللغات الحية
مصريين لا أجانب ، ويشرفنى أن أكون صاحب هذا الاقتراح ،
وقد نفذ العدو الصديق طه حسين

ونحن الذين ابتدعنا الرحلات العلمية إلى البلاد العربية ،
ومن الطريف أن أنص على أن الحج الجامى إلى بيت الله الحرام
هو من ابتكار كلية الآداب ، وقد وصلت عدواه إلى طلبة الأزهر
الشريف ، فتذكروا أن الحج من أركان الدين الحنيف

كليتنا عظيمة التأثير في الجيل الجديد ، ولا ينكر فضلها
إلا مكابر أو جاحود

أيها السادة
لكليتنا الغالية أجدادٌ جديرة بالتسجيل ، وأخص تلك
الأجداد حرية الفتاة في ارتياد المعاهد العالية ، وهذا لم يقع بمصر
لأول مرة إلا في كلية الآداب

كانت رفيقتي في دروس الأدب والفلسفة والتاريخ فتاة
لطيفة الروح ، وهي الآنسة مى ربيعة الجامعة المصرية ، وعنوان
الكاتبة الموهوبة في اللغة العربية